

## أثر النحو في تقويم اللسان للأديب محمد طه الحاجري

تستروح نسيم الحياة في هذا الكلام العربي الذي يقرؤه صاحبها بين حين وحين ، فلا عجب أن يبرز فيها شيء من مظاهر هذه الحياة ، فتحاول تكيف ذوق ذلك الصبي ، بمقدار ما أتيج لها من حياة هينة ضميعة مضطربة ؟؟

أما التفسير بالمصادفة فهروب من المسلك العلمي ، وأما السليقة العربية الموروثة فلا شك في وجودها ؛ وفي أنها وحدها التي تقوم ألسنتنا ، وتصحح عبارتنا ، على قدر ما تلقى من العناية والرعاية ، وعلى قدر ما تهتمدها به من التربية التي تناسب طبيعتها ، فأين نلتبس هذا النوع من التربية ؟

ألتمس في كتب النحو وقواعد العربية كما يفعل الناس جميعاً ، فيظن الواحد منهم أن من مجرد جرعات من الألفية أو الدروس النحوية كان خليقاً أن تصح سليقته ، ولا يخطئ من بعد في كلمة من الكلام ؟

لرجاز هذا الجاز للرجل الضيف المهالك أن يقرأ مجموعة من مجاميع الرياضة البدنية ، أو يستظهرها ، أو يستبطن أمرارها ومواطن تأثيرها ، فإذا هو قد أصبح ، بسحر هذه المجموعة ، قوياً نشيطاً مهزوزاً تتألق عليه الفراهة والعافية ، وإذا هو قد أصبح كذلك الرجل « الفلاح » الذي يقضى مواطن القوة فيه غذاءها الطبيعي من الشمس والهواء والعمل . ولكن أحداً لا يقول هذا ولا يتوهمه ، والأمر لا يعدو هذا القياس في تربية الفرزة اللغوية

وإني لأعرف فريقين من الناس بأعيانهم معرفة صحيحة صادقة يملآن طرفي هذه الحالة التي تتناولها ويثبتان القضية التي تقررهما طرداً وعكساً

أما أحد هذين الفريقين فقد صرف عن النحو صرفاً ، حتى لا يكاد يعرف من قواعد النحاة حرفاً ؛ ولكن مزاجه الذي أقبل به على يتابع الأدب العربي فأقبل على الكتب الأدبية يقرؤها ويتنوقها ويملاً نفسه بما فيها من جمال وامتعة ، فصنت بذلك سليقته ، وصحت ملكته ، حتى ليحس الاحتمة في الكلام ، كما يحس الموسيقى التشويز في الألحان . واستقام لسانه حتى لا يكاد يلحن أو يخطئ

وأما الفريق الآخر فطائفة من شيوخ الازهر الذين أدركنا أقبابهم ، قرأوا من كتب النحو الأجرومية والكافية وما بينهما ، وأحاطوا بقواعد النحاة وما دار حولها من خلاف

قالوا ، في رسم النحو رسماً غائياً : إنه علم تعصم مراعاته اللسان عن الخطأ في الكلام ، ومضوا على هذا الاعتبار يضمنون القواعد ، ويقيمون الحدود ، ويكدون الأذهان ، ويحملون على النشء في ذلك ما لا يحتمل . فإذا رأوا أن التوفيق إلى الغاية النبيلة قد أخطأهم ، وأن السبيل التي رسموها قد بغدت بهم ، لم يلتزموا طريقاً آخر يكون أهدى إلى الغاية ؛ فحسبهم أن ينثروا الطريق بالأزهار ، وأن يزبحوا بعض ما فيه من الأحجار ، حتى تتبدل — في زعمهم — طبيعته ، وتستقيم نحو الغاية بحجته ، ويلتفوا بذلك ما أعجز الأجيال السالفة ... وهكذا جملا كل مهم من الإصلاح اللغوي أن يهذبوا قواعد النحاة وينسقوها ويحذفوا فضولها ... ليصلوا بذلك إلى عصمة اللسان ، وهيات هيات !!

وأنا ما عرضت لأمر الصلة بين تعليم النحو وتقويم اللسان إلا اندفعت أمام ذهني صورة صبي صغير لا يكاد يبلغ التاسعة ، وقد جلس على مقعده الصغير في المدرسة ، وأمامه كراسة أكب عليها ، وجمل ينظر في جمل منسوقة كتبت فيها ؛ وكان العلم قد طلب منه ومن رفاقه أن يضبطوا أواخرها ، امتحاناً فيما علموه ، وثبتتاً لما قد عرفوه ، فأخذ ذلك الصبي يتحسس ما كان قد ألقى عليه ، ويحاول أن يضبطه في ذهنه ، ويضبط به ما أمامه ؛ فكان ذلك عبثاً لم يجد عليه شيئاً ... وإذن فإذا يصنع ولا بد من الاجابة صواباً أم خطأ ؟ أخذ يقرأ الجملة ويحرب على كلماتها علامات الاعراب ، فكان يشعر عند بعضها بارتياح ، ويحسبها أدنى إلى ما يقرؤه في كتاب المطالمة وغيره من الكتب التي اعتاد أن يبت بها ... فثبت الشكل الذي ارتاح إليه ؛ ثم يمضي إلى غيره ، وهكذا ، ثم يعطى الكراسة للعلم لتصحيحها ، فينتبظ حين ترد إليه فيعلم أنه لم يخطئ إلا قليلاً

أكانت المصادفة هي التي تمل على ذلك الصبي السكين ، أم كان شيئاً آخر في طبيعته وكيانه هو البذرة الأولى الملمورة في أعماق النفس للسليقة العربية ، قد ورثها لأنها بمض ما يقوم الجنس الذي ولد بجميع شخصاته ، ثم أخذت هذه البذرة

وجدل ، وربما أدركوا سر الكثير منها ، ثم كان الواحد منهم مع هذا لا يكاد يصدى فيما يقرأ أو يكتب إلا بعد تكلف شديد ، فما أغنى عنه ما بذل من جهد جهيد وعمر مديد في قراءة النحو وتفهم مشكلاته واستيضاح غوامضه . فانت سليقته اللغوية ولما استروح الحياة ، لأنه لم يعدها بالغذاء الطبيعي الحلى الذى يمكن أن يتمثل فيها ، ويمت فيها الحياة ماضية قوية ، ولكنه ألقمها أحجاراً جامدة إن لم تقض عليها فلن تبعث فيها شيئاً من معاني الحياة الصحيحة

ولقد بقى لنا من عصر الحملة الفرنسية وثيقة من الوثائق التى تؤيد هذا المعنى تأييداً تاماً ، وهى رسالة كتبها بخطه شيخ الاسلام ورئيس الديوان ، الشيخ عبد الله الشرفاوى ، وهى حجة قاطعة فى قيمة التعاليم النحوية من ناحية أثرها فى تقويم اللسان واصلاح اللغة على الأسلوب العربى ، فان يشك أحد فى أن الشيخ الشرفاوى قد تلقى من « النحو » أوفر ما كان يتلقى فى ذلك العهد وهذه ملاحظة ظاهرة جلية لا نكاد نحسب أحداً يجادانا فيها أو يخالفنا عليها ، وقد لاحظها من قبل العلامة الدقيق ابن خلدون ، فقال فى مقدمته ، بعد أن قرر أن العلم بقوانين الأعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل : « ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل فى كتابة سطرين إلى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده أخطأ فيما عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يجتهد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن القصور على أساليب اللسان العربى . وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية »

فليس عجيباً إذن ما يروى لنا من أن رجلاً جاء لابن خالويه وهو من هو - - فقال له : أريد أن تعلمنى من النحو والعربية ما أقيم به لسانى . فقال له ابن خالويه : أنا منذ خمسين سنة أعلم النحو ، ما تعلمت ما أقيم به لسانى

فالأمر فى اللغة هو أمر سليقة يجب أن تربي ، وملكة يجب أن تكون . ولن يكون ذلك بواسطة النحو ، فانه قواعد مبتدئة ، بل بواسطة البيان والأدب التى هو مظهر اللغة وبجلى حيويتها . أما النحو الذى أبى على ابن خالويه أن يقوم لسانه ، فلا مظهر لنا

فى أن يجدى علينا ما أباه على ذلك الامام وكيف كانوا يقومون ألسنتهم عند ما بدأت السلائق تضعف والألسنة تضرب ؟ كانوا - كما يعرف الناس جميعاً - يذهبون إلى البادية ، ويندجعون فى الحياة العربية ، فيهيئون بذلك لسليقتهم سبيل القوة ، فتصبح من بعد ذلك التحكمة فى منطقتهم ، والمعرفة لألسنتهم ، وليس لدينا مثل هذه الحياة العربية التى كانوا يلجأون إليها ، ويندجعون فيها ؛ ولكن إذا فاتنا ذلك فانا نستطيع أن نعيش بقلوبنا وعقولنا فى حياة عمرية اللسان ، فيكون لهذه مالتلك من الأثر الطيب المبارك . أما هذا النحو فقد أعلن إفلاسه فيما نطلبه من أجله ، وهو عصمة اللسان من الخطأ فى الكلام ، منذ عهد ابن خالويه إلى أيامنا هذه . ولن نجد أمراً صحيح اللسان قويم المنطق إلا وهو يرجع الفضل فى هذا الى ما أمد به سليقته من الآداب العربية

ويمثل ابن خلدون وجود الملكة العربية فى بعض المهرة فى صناعة الأعراب بدراسهم لكتاب سيويه ، وطول مخالطهم له لا من ناحية ما تناوله من تقرير القواعد . بل من ناحيته الأدبية « فانه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط ، بل ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم ، فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة ، فتجد المالك عليه ، والحاصل له ، قد حصل على حظ من كلام العرب ، واندرج محفوظه فى أما كنهه ، ومفاصل حاجاته ، وتنبه به لشأن الملكة ، فاستوفى تمليهما ، فكان أبلغ فى الافادة

ولستنا نضع بهذا - معاذ الله - من قيمة النحو ، وإنما نريد بهذا أن نضعه فى مكانه الحقيقى ، ونلتصق به غاية الطبيعى ، وهو معرفة قوانين اللغة العربية ، والنفاذ إلى أسرار التركيب فيها . وأكبر به من مكان ، وأعظم بها من غاية .

ترى لو كان أمر اللغة كأمر العلوم الأخرى التى تلتقى قوانينها واحدة بعد الأخرى ، ثم لا يشعر صاحبها أنها غيرت فى كيانه الداخلى ، لو كان الأمر كذلك فى اللغة أكننا نشمر بهذا الاستهجان والمضض الشديد حين نسمع خطيباً ياجن أو يغير فى الوضع العربى ، ونحس بعبارة اللحن كإنما أصابت موضع الكرامة أو الدرة فتتمل وتضجر كما نحس حين نسمع رجلاً يتناول دبتنا أو وطننا أو قوميتنا بما نكره ؟ وما ذا لو أن رجلاً أخطأ فى تقرير قاعدة أو تطبيق قانون علمى ؟ فهذا الفرق القائم